تخيِـيل الأنساق الثقافية في رو اية "وادي الحناء" للرو ائية جميلة طلباوي.

Imagining the cultural themes in the novel of "Wadi Al-Henna" by DJamila Talbawi.

يسمينة عوادي[1،*]،

[1]جامعة الوادي (الجزائر)،naimsouf23@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**: 2023/01/26 **تاريخ النشر**: 2023/03/31

ملخص:

تقوم هذه الدراسة بمحاولة تفكيك الأنساق الثقافية،الساكنة في رواية وادي الحناء، للروائية جميلة طلباوي،إذ يزخر هذا النص السردي بالعديد من المكونات الثقافية الكثيفة والثرية ،التي نحاول استنطاق المضمر منها ونفككه.تسعى هذه الدراسة لفهم الخطابات الثقافية التي يستعرضها هذا المتن الخصب بالفكر والناضج بالأسئلة التاريخية والثقافية، التي لفظها مناخ هذا النص.

الكلمات المفتاحية: نسق، فحولة، أنوثة، مركز، هامش،لون.

Abstract:

This study is trying to disassemble the cultural patterns found in Wadi Al-Henna's novel by DJamila Talbawi.

This narrative text is full of many rich and dense cultural components, from which

we are trying to reveal and deconstruct the implicit from it .

This study seeks to understand the cultural discourses that this body displays its dense thoughts and exuberance of the historical and cultural questions that the climate of this text has pronounced.

***Key words**: Layout, virility, femininity, center, fringe ,color..*

تفتح الرواية المعاصرة؛وخاصة منها الجزائرية حواسها ومناختها،لتُثريها بكل المغذيات الثقافية التراثية ؛لتكبر فنّيا وتتعدد رؤاها التخييلية ،وتتلون بأمزجة الأنساق التي تُشعل فتيل فتنة السرد ،وغوايته ؛ليتحول النص إلى ساحة استعراض للمُختلِف والنادر و المهمش ثقافيا وتاريخيا. إنها الرواية التي تبحث عن التفرّد في رصد الفتن النائمة وإيقاظ شغفها من جديد؛لتصبح مادة سردية وقرائية في آن.

سنتناول بالدرس رواية "وادي الحناء " التي تكثّفت فيها الأنساق وتزاحمت وتصادمت؛لنستطلع بذلك عوالم الصحراء **"العجيبة"** [1] * والمنسية التي أضمرها الرمل ؛لتكشف لنا القراءة نبوءة هذا الفضاء المختلف بناءً وتخييلا.

*** المؤلف المراسل.**

1- مركزية نسق الدين و الفحل وهيمنتهما الهادئة:

هيمن النسق الديني وكذا نسق الفحل على باقي الأنساق؛إذ نجدهما يتسيّدان فضاء التخييل في هذه الرواية؛ ولعل الرواية مزجت هذان النسقان بطريقة تتقاطب فيها الريادة والسيادة للنسق القبلي والإجتماعي:

1-1 نسق الدين :

عبّرت الرواية عن هذا النسق ،عبر مركزية **"الزاوية"**[2] * ، كفضاء يشع **بالكرامات**[3] * والتصوف والبركة، يترأسه **شيخ الزاوية** ،هذا الذي شكّل حضوره الثائر الهادئ،قُطب الرحى .

أ- شيخ الزاوية:

تُقدم لنا الرواية،هذه الشخصية بطريقة عجائبية ،محاطة بهالة من القداسة،والتقدير من قبل نسق القبيلة وكل المحيطين بها.

يعتبر شيخ الزاوية -ممثل القبيلة هنا- ،مصدر البركة والقبول عند الله:"أما **لالة حليمة** فكانت ترحب بضيفاتها بحرارة وبابتسامتها الجميلة و النساء الضيفات القادمات من مختلف أنحاء الوطن ،يعبّرن لها عن سعادتهن برؤيتها ،فيحكين لها عن سعادتهن برؤيتها،فيحكين لها سبب زيارتهن لها **وهنّ يترجّينها أن تنقل طلباتهن إلى سيدي الشيخ ،وكانت أغلبها يدعو الشيخ لهنّا الله أن يفرّج كربهن و أن يحقق لهنّ أمانيهن**.

كانت الواحدة منهنّ تسرد هُمومها "للالة حليمة" بكل طمأنينة وكأنها وصلت إلى مرفأ الأمان،فتستمع إليهنّ لالّة حليمة بحنان كبير وطيبة ونبل وتعدهنّ بنقل طلباتهن للشيخ بأن يدعو لكل واحدة منهنّ حسب وصيّتها"[4] ،يلعب "شيخ الزاوية" في هذا النص دورا مركزيا في مخيال العامة من الناس،إذْ يحمل في أذهان الناس هالة من القداسة والأسطورية،إنه الرجل الذي يعتبرا رمزا للتقوى والطهارة،لذلك حمّله نسق القبيلة دورا مركزيا في نقل أحلامهم وآمالهم ،فهم المريدون الذين يعتقدون بقدرة الشيخ الكبيرة بأنه إذا دعا لهم ؛فإن الله سيستجيب لهم لا محالة.

تعتبر الزاوية عبر شيخها ،وزوجته حليمة ،حواضن آمنة،يهتدي لها المريدون من كل مكان بغية الراحة الروحية والنفسية،فهي فضاء،للأمان والطمأنينة وتيسير الأحوال.

في سياق آخر من مقطع آخر تستعرض لنا الرواية مكانة شيخ الزاوية بين أهله وخدمه، وهذا ما جاء على لسان البطلة عويشة:" أذكر أنني كنت لا ألبث وأنا أعيش نشوة اللعب مع رفيقاتي حفيدات "الشيخ"،حتى أشعر بحركة غريبة في القصر،تسرع الخادمات تهمسن بكلام لم أكن أفهمه للنساء اللواتي يكنّ في البيت بأن يغطين رؤوسهن بمناديل،وبأن يلتزمن أماكنهن في جناح الضيوف وتقف بنات الشيخ وأبناؤهن في صف واحد والخادمات في صف،كما تأمر رئيسة الخادمات الخادمة زازة الأطفال بالتوقف عن الجري واللعب .تسكن الحركة وتنتظم الصفوف ،وماهي إلا لحظات حتى يخرج الشيخ من خلوته كملاك حطّ من السماء بلباسه الأبيض ومحياه المشرق نورا وابتسامته التي تعكس طيبة قلبه وتشع لحيته نورا لشدة بياضها،فيبدو لي كأنما هو رجل من

الضياء."[5] ،يتجلى الشيخ في هذا المقطع في عيون عائلته والمحيطين، كالفحل الذي يخرج من عرينه؛فتنحني له الرؤوس احترما وهيبة ،فحضور هذه الشخصية في ساحة القصر ،يُعطّل نظام العشوائية التي يصنعها الكبار والصغار في هذا الفضاء؛لنشهد نظاما جديدا وصارما،يُولد لحظة تسيّد "سيدي الشيخ" المكان .

ب- الشيخ عثمان (ابن شيخ الزاوية)

يعتبر "الشيخ عثمان" في هذا المقام الوريث الشرعي للحفاظ على السلالة الشريفة،فهذه الشخصية عانت الكثير لأن الزوجة الأولى لم تنجب له حتى يستمر النسب الشريف:" هزت لالة حفصة رأسها بالإيجاب وهي تخبرني بأن السي عثمان طلق زوجته لالة مليكة،لأنها لم تنجب له الولد الذي ظل يحلم به،فهو الوريث الوحيد لسيدي الشيخ،ولا بد أن يكون له ولد يحفظ امتداد سلالة الشيخ الشريفة.ومما عقّد الوضع رفض لالة مليكة زواج السي عثمام من امرأة أخرى قد تنجب له الولد"[6]، تطرح الرواية إشكالية "**نقاء العرق**"[*] [7]،وهو أن تبقى سلالة نسق الفحل فريدة دون أن تختلط دماؤها بدماء أخرى،فكيف بفحل ،ارتبط اسمه بالخصوبة الفكرية و العرقية ،أن يقف العقم في طريقه ويهدد انقراض سلالته الشريفة.إن انقطاع هذا النسق عن الولادة،لهو إيذان بزوال هيمنة هذا النسق الناعمة على مريديها،واندثار فكرها وطريقتها الروحية.

إن ميلاد مولود ذكر هو بذرة جديدة،تبشّر باستمرار هذا النهج الصوفي القائم على التكافل الجماعي في سبيل الزاوية ومريديها.

تصف لنا الرواية ضمور نسق الفحل الذي يسكن "الشيخ عثمان"رغم مكانته الدينية :"مرت خمس سنوات من خيبة الأمل و اليأس بعد محاولات علاج متكررة.لم يعد السي عثمان يطيق البقاء دون طفل،كلما حل عيد أو مناسبة واجتمع الأطفال في باحة القصر في انتظار إطلالة الشيخ ليوزع عليهم الحلوى و الهدايا ولينالوا بركته إلا واعتصر قلب السي عثمان واعتصر وجهه حمرة بسماع أدعية الزوار بأن يرزقه الله الذرية الصالحة."[8]

تفصل لنا الرواية في تمزق ذات الفحل "الشيخ عثمان" ،وبقائه بلا حول ولا قوة في الحصول على خليفته ،رغم حصوله على كل متطلبات العيش الكريم وهيبته ومكانته الاجتماعية المهيبة.

تصف الرواية فرحة "الفحل" "الشيخ عثمان" بأن رزقه الله الولد من الزوجة الثانية ،بعد طلاقه من الأولى :" أخيرا وبعد انتظار طويل **حقّق السي عثمان حلمه في الأبوة ،وصار أبا.**فرحة سيدي الشيخ كانت كبيرة جدا.أقيمت الولائم في القصر وظل تلاميذ الزاوية يرتلون القرآن بطلب من الشيخ،حمدا لله الذي استجاب لدعائه ولم يحرم ابنه الوحيد من الذرية."[9]،تنفرج عقدة نسق الفحل "سيدي عثمان" وتنبلج أساريره في حفظ السلالة بعد أن كبّله الهمّ والغم ،حيث شكل له منظور الخواء والعقم،تهديدا لمجد تليد ،توارثته سلالة الزاوية الشريفة.

يصنع الشيخ عثمان بحضوره في هذا النص جدلا ،ليُنبهنا إلى سنة التدافع و سيرورة الحياة، التي تأتي بأفكار جديدة وجريئة:" أذكر بأن زيارة الرئيس لم تكن رسمية لمجموعة من زوايا تيمي في مقدمتها زاوية الشيخ

العلم العلامة سيدي محمد بالكبير ،ثم زاوية الشيخ الذي قيل عنه أنه استقبل الرئيس أحسن استقبال كما يفعل مع كل ضيوفه، مقتديا بالعلامة سيدي محمد بلكبير،فهمت ذلك من **ابنه السي عثمان** عندما سمعته يحدث لالة حليمة في الأمر،ويعبّر لها عدم موافقته لوالده شيخ الزاوية حول رفضه لمساعدة بعض الشخصيات في الانتخابات.

حاول بصوت هادئ أن يقنعها بضرورة أخذ موقع ممّا يحدث في البلاد،تمتم قائلا :"بشوي سياسة الزاوية تروح لبعيد"...ظلت لالة حليمة تنصت للسي عثمان بهدوئها المعتاد وبحكمتها سر احترام الجميع لها ثم رسمت على وجهها المنير ابتسامة وهي تتمتم:"يا ولدي الشعير والراحة ولا القمح والفضاحة"[10] ،يكشف لنا هذا المقطع مدى الصراع الفكري والجيوسياسي بين أجيال الزاوية الواحدة،فالشيخ عثمان عكس والده يؤمن بزواج الدين بالسياسة وهجنتهما،حيث أنها ستحقق للزاوية سطوة أكثر وهيمنة أوسع،وموارد مالية ثابتة من قِبل النظام الذي ستباركه الزاوية بمريديها،وذلك للفوز في الانتخبات بكل أريحية. إذ نلحظ تضادا في الرؤية بين جيلين الأول مارس الحياد والثاني يريد الدخول بقوته الساحرة على مريديه ليشارك في اللعبة السياسية .

ج- جلول سلطان القلوب:

احتلت هذه الشخصية مكانة هامة في الرواية،بحضور فحولتها المتمثلة في المكانة الاجتماعية بكون "الشيخ جلول" رائدا في التجارة ،كما أن له سطوة في قبيلته و ما جاورها ،فهو بالإضافة إلى فحولته الرمزية في المجالات السابقة ،فهو **فحل***

[11] في قول الشعر ،فإنه حيثما حلّ أدهش وأسر القلوب بشعره و ومُكنته في الإلقاء:"**تعالت الزغاريد بهجة بقدوم سلطان الغرام**،مشى بين الجموع تداعب الرمال الصافية خطواته،أخذ مكانه وسط الحلقة الكبيرة من نساء ورجال وأطفال،عدّل من شاش عمامته التي يعتز بها، فزاد وجهه بهاءً وجاذبية ،انتبهت النسوة على لون عينيه البنّي ،وإلى أنفه الشامخ وسمرته الحلوة وقامته الفارعة الطول،**وقف وكأن مغناطيسا ظل يشدّه إلى الحسناء مريم** التي اعتصر خجلا وعيناها تلتقيان بعيني **سلطان الغرام**،شدّت الملحفة المتدلية على رأسها وغطّت ثغرها الباسم ،فاعتصر وجه الحاج وراح ينشد قصيدة في الغزل بدلا من قصيدة في مدح الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام،وهو يردد على مسمع الحاضرين :"احسنوا عون العاشق بالجمر مكوي-نار المحبوب قادية واش يطفيها.**ظل الحاضرون يهللون ويكبّرون ويطلبون منه المزيد** .يمسد الحاج جلول لحيته بيده التي يبرز في أحد أصابعها خاتم من فضة تلمع في حجرات سوداء ،ثم يعدّل من وقفته،ليرتجل قصيدة غزل في ظبية أخذت لبّه بسحرها وجمالها"[12] ،يعتبر حضور الحاج جلول ملفتا للنظر ،حيث أظهر فحولة شعرية منقطعة النظير،فقد أدهش الحاضرين وسبى ألبابهم،وسحر آذانهم بشعره الغزلي الذي يقطر جمالا وبلاغة ،فهو باستعراضه هذا يعتبر سيد المقام ومالكه،وبالرغم من أنه فحل ولكنّ هيمنة النسق الأنثوي الناعم ممثلا في مريم،شكّل بالنسبة للحاج جلول صدمة جميلة ،جعلته يرمي بشباك كلماته، لعله يظفر بهذه الظبية(مريم)، التي تمثل رمز الجمال عند العرب.

لقد تحول الحاج جلول من كونه مركزا يجذب إليه الحضور بشعره، إلى عنصر مجذوب(هامش) مع

الفاتنة مريم ؛حيث طغت مركزية نسق الأنوثة وجاذبيتها في قول:" **وقف وكأن مغناطيسا ظل يشدّه إلى الحسناء مريم**".

تنتقل الرواية لتسيح بنا في تفاصيل حياة الفحل الحاج جلول :"مريم كغيرها من سكان البلدة تكنّ إعجابا كبيرا لهذا **الرجل الأسطورة**،هذا الرجل الذي في كلامه سحر وفي حضوره نور وضياء ،مثلها كانت زوجاته الثلاث،من قبل ،لكل واحدة منهنّ حكاية عن بدء اشتعال لهيب الإعجاب بالسلطان الساحر ،لكل واحدة منهن لحظة الشوق ولحظة الفرح أن صارت له قرينة،الكبرى قريبته وفرحته الأولى التي اختارتها والدته وأنجب منها خمس ذكور وأربع إناث والثانية ابنة أحد أعيان المدينة افتتن بجمالها وطاب لوالدها أن يصاهر السلطان الساحر ،فتمّ الزواج،وأنجبت له ثلاث بنات وذكر واحد،أما الثالثة فكانت من بنات الأعيان أيضا ،يقال أنها افتتنت بجماله..."[13]،أسطرت الرواية هذا الرجل وجعلت منه رجلا خارقا،حيث أنه فحل الرجال وأفحل الشعراء،حيث يتجلى بمركزية تهيمن على نسق القبيلة والأنوثة،فنجد الجميع يتسابق لمصاهرته،لشدة انبهارهم برجولته وماله وشعره.تكشف لنا الرواية نسيجا ذهنيا وثقافيا لمجتمع تضرب جذوره في صحراءٍ تنتج أنساقها الفريدة الضاربة في العادات والتقاليد المتميزة.

تستمر الرواية في إظهار خصال الفحل "الحاج جلول" و فرادة حضوره في المجتمع :"ما كان يضحكهما أكثر هو مشاركة الزوجتين الأولى و الثانية في حفل زفاف حبيبهما وزوجهما الحاج جلول ،كانتا تحرصان على إرضائه وسعادته،ما كان يهمها هو أن تعيشا في كنفه و أن يغمرهما سحره .لم يكن يسمع من كلتيهما سوى عبارة :"هذا سيدنا وتاج راسنا ما يدخل بيننا الشيطان"ولا أحد استطاع تفسير هذا السحر في سلطان الغرام الحاج جلول الذي صار البلسم لجراح الأهالي.أدّ باكة تقول عنه أيضا:"من زمان سلطاننا سبع".

وتذكر للخادمات كيف أن الحاج جلول كان مُهاب الجانب حتى من طرف المستعمر الفرنسي" [14] ،تسبر هذه الرواية حضور هذا الرجل بين حريمه،حيث يسحرهن بحضوره الأسطوري ويضعهن تحت جناحه حماية لهن؛ليحدث الاستثناء ويعشن في كنفه متصالحات ومتوازنات ،راجيات رضاه .كما أن الرواية تبرز هيبة الرجل الفحل حتى عند المستعمر الغاشم.

د- الحاج موسى (الابن البِكر للحاج جلول):

أسندت الرواية دورا مركزية للابن البكر "الحاج موسى" إذ يعتبر عنصرا مساعدا لنسق الأنوثة ومحافظته على سلالة التميز والنجاح والتسيد في قومه ،إذ اعتبر الحامي لأحلام نسق الأنوثة ،أخته "عويشة" التي رافقها في إكمال دراستها ،مديرا ظهره للأعمام الذين عارضوا ذهابها لجامعة وهران:" جلس على كرسي مقابل المكتب ودعاني للاقتراب منه،ثم سحب علبة قطيفة من جيبه ،فتحها ليخرج منها خاتما من ذهب ،سلّمه لي على أنه هدية تفوقي .

قفزت من فرط الفرح وارتميت في حضنه أعانقه وأشكره على كرمه،ضمّني إليه بقوة وهو يوصيني بالنجاح دائما ويؤكد لي بأنه سيقف إلى جانبي لإكمال دراستي مهما كانت الظروف"[15]،يلعب الفحل هنا دور النصير والمؤيد لنسق الأنوثة،إذ يدعم "عويشة" في تحقيق ما تصبو إليه،فهو امتداد لسلالة أبيه في التميز والنجاح .

2- نسق الأنوثة :

طغى على الرواية مناخ أنثوي ،عبقت به ثناياها،حيث تلونت الأنساق الأنثوية بالأحداث والمفارقات التي تصادف القارئ.

أ- مركزية الأنثى وبنات شيخ الزاوية وحفيداته:

- **لالة حليمة مركز النسق الأنثوي:**

فخّخت الرواية هذا النسق وجعلت منه مادة سردية بالغة الهيبة، إذ أن دور "حلمية "،زوجة شيخ الزاوية دور محوري ومركزي ،يحتل مكانة سامية ضمن هذا النسق،فهذه الشخصية لديها سلطة مخملية ناعمة تهمين بها على المجتمع الأنثوي:"لالة حليمة هي أيضا كانت محظوظة حين اختارها الشيخ زوجه له بعد وفاة زوجته الأولى، **فارتقت منزلتها الاجتماعية لكن الضريبة** كانت،ألا **تغادر البيت الكبير إلا إلى قبرها**، منذ أيام فقط أقيم عرس كبير في بيت أحد أعيان المدينة، فرحت بها كثيرا فلهدايا حرم سيدي الشيخ بركاتها وعندما تساءلت عن عدم تلبيتها للدعوة والحضور لوليمة العرس التي كانت كبيره جدا، أخبرتني زازه بأن زوجه الشيخ في العرف لا تخرج لا تغادر بيت الشيخ أبدا، مهما كانت الظروف والأحوال، قالت وهي تبلع حبه تمر نزعت نواتها وألقت بها في الجنان:" لالاّ من دار سيدنا لقبرها".

لالاّ حليمة لم تكن تغادر بيتها حتى للعلاج كانت الطبيبة تحضر إلى البيت لتكشف عليها ولتقدم لها العلاج اللازم كانت الطبيبة تقوم بذلك عن طيب خاطر وهي تدرك أهميه احترام أعراف سكان المدينة ولمحبتها للالة حليمة السيدة الجليلة"[16]،تحضرنا هنا مقولة اجتماعية بأن "المرأة قبرها رجل"،فهي في عرف الزاوية لا تخرج للشارع وتنقطع عن المجتمع؛إذْ أنها تختار هذا الخيار الصعب الذي يجعلها مركزا لنسق الأنوثة باعتبارها تستمد رُقيها الاجتماعي من "سيدي الشيخ"،فتتسيّد عليه وتصبح وسيط لهذا النسق بينها وبين الشيخ الذي يأتيه المريدون ،آملين في رؤيته والتبرك بدعواته وكراماته.

إن شخصية حليمة وبرغم ذلك ،تدور في مدار زوجها شيخ الزاوية ولا تخرج على النسق والأعراف التي رسمتها الزاوية ورسّخها الزمن حول السيدة الأولى للزاوية.

إن هذا الخيار الصارم الذي اختارته لالة حليمة لنفسها ،حيث فضلت أن تكون ورقة حناء، حيث تعيش لتعطي من خضرتها ونضارتها للجميع ،حيث تتغذى من الهالة القداسية والأسطورية للشيخ،لهو خيار يلزمه جلَدٌ و استعداد كبيرين، للعب هذا الدور الديني والاجتماعي ضمن مجتمع أنثوي مغلق.

تبين الرواية دور السيدة الأولى في خدمة المجتمع وتشجيع العلم ممثلا في نجاح "عويشة في شهادة الابتدائي ":"لا حليمة لم تفوت الفرصة ،وأقامت لي احتفالا كبيرا في القصر وكانت هديتها لي قرطين من ذهب ،أعطت لوالدتي لالة مريم المال لتشتري لها سلسلة من ذهب باعتبار أنها ممنوعة من الخروج حسب الأصول فهي زوجة شيخ الزاوية وطلبت منها أن تشتري لي قرطين من ذهب أتزين بهما نظير اجتهادي وتفوقي " [17]،يؤكد لنا هذا المقطع الدور الاجتماعي والأمومي التي تقوم به زوجة شيخ الزاوية في تشجيع العلم رغم حرمانها من الخروج،فهي ترى في عويشة الأمل الذي ينبلج من بعيد،وتحضر دلالة الذهب هنا لأقصى وأثمن ما يهدى للأنثى التي لها علاقة خاصة مع هذا المعدن، الذي يزيد الأنثى حضورا وبهاءً.

- **مريم – عويشة، أنوثة الحناء المعطوبة:**

تعتبر مريم وابنتها عويشة، تراجيديا هذا النص،حيث فاحت منهما رائحة الحناء المسحوقة ،والممزوجة بماء سواقي الفقارات اليتيمة.

لقد عاشت الأم والبنت يُتما وفقدا لم يندمل نزفه،حيث أن هذه الرواية تلوح لنا برسائل بالغة في الألم بأنّك كلما ازددت جمالا؛كلما ازددت ألما.

مريم:

تبدأ رحلة مريم عندما خطبها الحاج جلول، وحزن أبيها بعد موافقته على زواج ابنته وذهابها خارج مدينة تيمي:"وها هي مريم بسبب جمالها الفاتن ستتزوج خارج القرية هي الأخرى،وتستقر في تلك المدينة البعيدة"تيمي"،تنهّد أبا حمد عميقا وقال:"دارْها لهم زينهم"...يومها تهدت "حنّا الزا"عميقا و الدموع تتلألأ في عينيها ثم هزّت رأسها لتؤكد صدق ما قال وهي تتحسّر على هذا القدر وتتمتم:"بناتك زريعة حنّة"[18]، يتحول الجمال بالنسبة للأب أحمد إلى لعنة لدى بناته ،حيث أن جمال نجلاته،جعل منهنّ مطلبا للبعيد ،وتستعير الجدة مقولة الخصب والنماء ؛لتربط الجمال والخصوبة والتمدّد ببذور الحناء التي ،أينما زرعت ،أزهر الجمال،والخصب في الصحراء التي ارتبط حيزها في المخيال الشعبي بالموت والفناء.

في سياق الألم تصف الرواية مريم وآلامها مع المرض المميت:"حال والدتي لم يكن يطمئن ،الطبيبة بخبرتها جعلتها تتحدث وتخبرها عن الورم الذي تطور في ثديها،الطبيبة ابتلعت ريقها من هول الصدمة ،لكن والدتي أضافت بثقة كبيرة بأن الدّا رقية في قريتها أخبرتها بأن الورم تشكل في ثديها بفعل السحر الذي قامت به زوجات الحاج جلول انتقاما منها أن تزوجت من حبيبهن سلطان الغرام...استطعت أن أدرك حينها بأن والدتي هي الأخرى كانت ورقة حناء سحقها المرض ورغم ذلك كانت تزيّن حياتي بحضورها وهي تكتم ألمها.

كل من يسحقه الألم هو يزين ما حوله ،ما هو في حقيقة الأمر سوى ورقة حناء مسحوقة"[19]، تصف الرواية حالة مريم التي كانت ورقة حناء تزيّنت بها حياة الحاج جلول،الذي كان لها نعم الزوج المحب،ولكن بعد

وفاته ،أصابها داء السرطان وفتتها كما تفتت ورقة الحناء،لقد أصابها الورم في ثديها الذي يرمز للأنوثة التي أصابها العطب في هذا المقام .

- **عويشة :**

مثلت عويشة سلالة أبيها التي خلقت لتنجح وتتحدّى نسق القبيلة،الذي لا يسمح للأنثى أن تكمل دراستها :"كان الخجل يعتصر وجهي وحبيبات العرق تتدافع باردة من جبيني،أحسست ببلل في كامل أنحاء جسمي،بلل له طعم العرق وله رائحة الحناء،انتشلتني من كل هذا حرم الرئيس،وهي تقول :الله يبارك.

استأذنت من لالة حليمة ،ألقيت التحية على زوجة الرئيس ،فمدت يدها وشدتني لتقبل خدي فتملكني إحساس بأنها فكت شفرة روحي جعلتني أقرب إلى عصفور انتابته رغبة جامحة في التحليق ،عدوت نحو أمي التي ضمّتني إليها وقبلتني وكذا فعلت باقي النسوة من زوجات الأعيان،كل واحدة تنهض لتقبلني وتدس بعض الدنانير في يدي ،كانت سعادتي غامرة وسعادة أمي كانت أكبر وهي تراني أخطو خطواتي الأولى نحو تحقيق حلمها **لأكون سلطانة القلوب مثل والدي رحمه الله.**

أمي لم تخف سعادتها وراحت تقول للنسوة :"بنتي وريقة حنّا اللي شافها يتهنا"[20] ،تطرح الرواية النسق الأنثوي كامتداد لنسق الفحل ممثلا في المرحوم الحاج جلول،فعويشة عاشت لتكمل المجد الذي شيّده أبوها الذي كان يشار إليه بالبنان،فعويشة عاشت وتربت في مجتمع أنثوي متعدد الأطياف والألوان ،مابين سيد وخادم وأعيان،فقد شكل كل هذه العوالم فسيفساء نهلت منها الأنثى التي تسكنها.

لقد ارتبط مسار شخصية عويشة بالحزن والفراق ،ولعل قصتها تتناص مع ما جاء في" الميثولوجيات والحكايات الشعبية، كانت الدموع قادرة على الخلق، دموع تؤدي إلى الفيضانات، ودموع تعالج الأمراض، وبل إن الربيع يأتي من أمطار الدموع، وسنرى دموع **وريقة الحناء** أو الحمامة المسحورة التي أنزلت الأمطار وأغزرتها."[21]

ولعل الرابط المشترك في كل هذا هو حكاية فقد الأب والأم...فالدموع التي سقت الحناء كانت لتصنع الربيع ،ربيع النجاح بين القصتين.

3- نسق العنف والموت:

شهدت الرواية مناخات جنائزية ،كانت حاجزا لأوراق الحناء أن تينع وتتفتح ،فقد تخضبت هذه الأوراق بالدماء، كما تخضب خضرتها كف اليد وها هو حوار دار بين محمد وعويشة في هذا السياق ،:" في الفترة الدموية التي عرفتها البلاد بداية تسعينيات القرن الماضي،كنا خلالها كلما أردنا ركوب الحافلة للرجوع إلى مدينتنا إلا وبكينا ونحن نودع أصدقاءنا فقد يصادفنا حاجز مزيف ونُنحر ككبشين.

ونفس الدموع ونفس الألم ،وكثير من الرعب كلها أشياء كانت تحضر بقوة كلما انتهت العطلة ،وأردنا ركوب الحافلة ونودع الأهل للانطلاق من أدرار نحو جامعة السانية بوهران...أطال الصمت وقد تملكه إحباط شديد قبل ان يحدثني عن جدوى هذه المغامرة من أجل الدراسة في بلد الموت .

انتفضت غاضبة وأنا أقول له بأنني ابنة وادي الحناء وبأنني ورقة حناء خضراء ،ولا يكون لوجود الحناء معنى إلا بعد أن تسحق وتخلط بالماء لتأخذ في الأكف لونا أحمر مبهجا.

قلت له بأن الحاجز المزيف لا يهمني ،أنا خلقت لأكون لون الفرح."[22] نشهد في هذا المقطع صراعا بين نسقي الأنوثة والموت ،فالأول رديف الحياة والثاني يعني الفناء والغياب

تستعمل الرواية معادلا موضوعيا ممثلا في ورقة الحناء التي ترمز للحياة والكفاح والصبر والثبات ،فهي تتمدد و تحيا لتنتصر للحياة،على آلة الموت والاغتيال العمياء .هي الحياة ممثلة في وادي الحناء الذي يرمز فيه الماء للوفرة والخصوبة، وترمز فيه الحناء للتجدد والخلود.

4- نسق اللون:

يعتبر اللون مظهرا،و تعبيرا جماليا وثقافيا ،يكتنز في طياته العديد من الدلالات،ففي هذا النص سنتناول لون البشرة وعلاقته بالتصنيف الاجتماعي،ما بين رافض ومتصالح مع لونه وانعكاس ذلك على الحركية السردية عامة في هذا النص.تقول البطلة :ومثلا الحناء قد تكون غير محببة لبعض الأشخاص فينفرون منها،كان لوني غير محبب لبعض الزملاء في الجامعة ،وحتى أن بعض المارة في الشارع،منهم من كان يستفزه لوني فيسخر من وينابزني أحيانا "**النقريطة**".في بداية الأمر كانت العبارة تزعجني فأصرخ وأنتفض وأدخل في معارك مع أولئك العنصريين،لكن مع مرور الوقت وجدتني أتصالح مع الكلمة ،فهي في النهاية تعني **الزنجية** ولي أن **أفخر بلوني** ،أكثر من ذلك صرت أتحدث مع زميلتي في الغرفة وأوظف كلمة "نقريطة" وأنسبها لنفسي."[23]،يعتبر لون البشرة في المجتمعات المغلقة ثقافيا،حاجزا إنسانيا يصنف من خلاله الإنسان ضمن السُّلم الاجتماعي والنقاء العرقي ،الذي يقوم على قداسة السلالة وعلو قيمتها على كل الأعراق..." وعلى هذا فالسواد يحتفظ بداخله بدلالات رمزية مرتبطة في الغالب بالشؤم والخطيئة والشر.وهو ما يجعل من هذه الدلالات الرمزية للون ،من هذا المنظور ،دلالة ذائعة بين الشعوب"[24].إن البطلة وبرغم هذا التغوّل الذي يمارسه النسق الاجتماعي على ذاتها،فإنها تجاوزت هذه الرؤية الخارجية السطحية للتصالح مع عوالمها الداخلية وتفتخر بزنوجتها التي كانت إلى وقت قريب مصدر إهانة بالنسبة لها.

تستمر الرواية في الحديث عن تاريخ اللون في مدينة تيمي،وكيف تعامل معه النسق الاجتماعي،":والدي الحاج جلول كانت له مكانة مرموقة في تيمي **لم يكن ضحية لونه الأسمر** كباقي بني جلدته فيجد نفسه منبوذا أو خادما أوفي الترتيب الأخير من السلم الاجتماعي في مدينتي،بل استطاع افتكاك مكان له بين الأشراف والنبلاء بفضل موهبته،إذ كان شاعرا ،حكيما ،ومخبأ أسرار أهل المدينة.."[25]،تناول هذا المقطع فكرة بالغة الأهمية من منظور اجتماعي يصنف الناس حسب بشرتهم،فكلما ازددت سمرة ؛سقطت من السلم الاجتماعي إلى أسفل

التصنيف و الإهانة...والجانب الآخر الذي رصدته الرواية هو أن شخصية الحاج جلول ،حطّم نسق اللون الذي يسكن في مخيال الجماعة المهيمنة ،وفرض وجوده ،عبر ،نسق الفحل ،الممثل في "فحولة القول"(الشعر)،والحكمة التي يمتلكها،كما أنه تاجر كبير ومعروف؛إذًا سلطة القول والحكمة وكذا المال،جعلت الحاج جلول يفكر خارج الصندوق،ليصنّف من قِبل القبيلة خارج الصنف اللوني (اللون الأسمر)،ويحضى بالمكانة المرموقة.

خاتمة:

نثرت الرواية ،وعبر تقاطبات سردية عالية التردد؛أنساقا ثقافية مدهشة وعجائبية،تعبر عن مجتمع مغلق ،فتح النص غموض أقفاله المخبأة تحت رمل اللغة، التي تلوّنت وتعددت مستوياتها لتكشف لنا عن ثقافة أفضية،تخبئ الكثير من العجيب والمختلف.

واذ نخلص في هذه الدراسة بأن الرواية شهدت زحاما عارما للأنساق الثقافية،حيث هيمن النسق الدين ونسق الفحل على نسق الأنوثة.إن نسق الدين هنا لعب دورا مركزيا في قيادة المجتمع وتنظيمه .

قائمة المصادروالمراجع:

1أبو القاسم اللالكائي، كرامات أولياء الله عز وجلّ، تح: أحمد سعد حمدان، ط1 ،دار طيبة للنشر والتوزيع ،1992، الرياض.

2 أروى عبده عثمان،فلكور المطر في الذاكرة اليمنية،مجلة الثقافة الشعبية ،عدد 11،خريف 2011،البحرين.

3 جميلة طلباوي،وادي الحناء،دار ميم للنشر،الجزائر،ط1 ،2018.

4 فضيلة بوديوجة،تجليات العجائبية في الرواية العربية،رواية "التبر"و "نزيف الحجر"،أنموذجا،مجلة المرتقى،المدرسة العليا للأستاذة،مستغانم ،المجلد 5،العدد 1،مارس 2022.

6 عبد العزيز شهي ،الزوايا الصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر ، دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر.

7 نادر كاظم،تمثيلات الآخر-صورة السود في المتخيل العربي الوسيط-،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لبنان، ط 1 ،2004 .

8محمد جميح، النقاء العرقي والطهارة الدينية،جريدة القدس العربي.

9 سعيد تومي،وصطفى البشيرقط،تمثلات النسق في الفحولة الشعرية قراءة نقدية ثقافية من منظور عبد الله الغذامي،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،جامعة تامنغست،الجزائر،المجلد 10،العدد 1،مارس 2021.

هوامش وإحالات المقال

[*] تم توظيف **العجائبي** لخرق المألوف عن طريق المسخ والتحول والرعب واللامعقول واللاوعي والاستيهام والأحلام ،لابتكار أساليب تعبيرية جديدة ومغايرة لمعالجة الواقعي بما هو غير واقعي والمعقول عن طريق اللامعقول .

[1] فضيلة بوديوجة،تجليات العجائبية في الرواية العربية،رواية "التبر"و "نزيف الحجر"،أنموذجا،مجلة المرتقى،المدرسة العليا للأستاذة،مستغانم ،المجلد 5،العدد 1،مارس 2022، ص 124،125 .

[*] مراكز تحفيظ القرآن،وتعليم أصول الدين الغسلامي ،والعلم الشرعي ونشر الأخلاق والفضائل الإسلامية.

[2] ينظر: عبد العزيز شهي ،الزوايا الصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر ، دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر، ص14.

[*] الكرامات: أمر خارق للعادة يظهره الله عز وجلّ على أيدي أوليائه.

[3] أبو القاسم اللالكائي، كرامات أولياء الله عز وجلّ، تح: أحمد سعد حمدان، ط1 ،دار طيبة للنشر والتوزيع ،1992، الرياض ،ص 14 .

[4] جميلة طلباوي،وادي الحناء،دار ميم للنشر،الجزائر،ط1 ،2018، ص86.

[5] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص95،96 .

[6] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 66،67.

[*] الإيمان **بالنقاء العرقي** هو يقتضي ضمناً الاعتقاد بالطهارة الدينية، حيث يترسخ هذا المفهومان لدى الأيديولوجيات «العرق دينية.

[7] محمد جميح، النقاء العرقي والطهارة الدينية،جريدة القدس العربي،تاريخ نشر المقال:19-10-2022،تاريخ الإحالة: 31-12-2022.

[8] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 69.

[9] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 176،175.

[10] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 60.

[*] فالفحل من الشعراء صفة للشاعر المتميّز القادر على مستوى المعاني والصيغ والأشكال الشعرية فاستحق منزلة الطبقات المتقدمة بين أقرانه من الشعراء الآخرين.

[11] سعيد تومي،وصطفى البشيرقط،تمثلات النسق في الفحولة الشعرية قراءة نقدية ثقافية من منظور عبد الله الغذامي،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،جامعة تامنغست،الجزائر،المجلد 10،العدد 1،مارس 2021 ،ص286.

[12] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص23، 24.

[13] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص25، 26.

[14] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص28، 29.

[15] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 106.

[16] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 83، 84.

[17] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 98،97.

[18] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص41.

[19] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 126.

[20] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 61.

[21] أروى عبده عثمان،فلكور المطر في الذاكرة اليمنية،مجلة الثقافة الشعبية ،عدد 11،خريف 2011،البحرين،ص111.

[22] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص18 .

[23] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص 17،16.

[24] نادر كاظم،تمثيلات الآخر-صورة السود في المتخيل العربي الوسيط-،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لبنان،ط1،2004 ،ص146 .

[25] جميلة طلباوي،وادي الحناء،ص22 .